سراب صوفي نعرفه[1]

الصوفية غير الإسلام، كما أن الظلام والباطل والكفر، غير النور والحق والإيمان... هذه حقيقة نؤمن بها؛ لأنها حَقٌّ يُلْهِمُه الدين، ويقرره العقل، وتوحي به الفطرة الخالصة من شوائب التقليد الأصم الأبكم، ومنذ نشأت الصوفية وهي في حرب ماكرة مع الإسلام، إذا فترت حرارة في القلوب وسلك المسلمون سبيل الهوىٰ، استعلنت الصوفية بحربها، فقضت علىٰ الرمق الشاحب من صفاء العقيدة في كثير من القلوب، وراحت تنشر كتبها تحت سمع وبصر كثير من الحكام الذين كانت قلوبهم وسيوفهم وأموالهم مع المجوسية، وسرابُ نفاقهم مع اسم الإسلام، بيد أن الله سبحانه سخر لهذه الأمة فريقًا من المؤمنين، وعلىٰ رأسهم زعيمهم شيخ الإسلام ابن تيمية، يبصرها من كيد الصوفية، وثمت راحت الصوفية تلوذ بِشِفٍّ من النفاق لا يخفىٰ ما وراءه إلا علىٰ عُمْي البصيرة، فتارةً تبرأ مما تقول إذا شامت الطعنة النجلاء من الحق تكاد تمس منها الشِّغافَ، وتارةً تحاول تأويل ما تقول تأويلًا يُدْنيه من لمحات الحق إذا شامت بعض العقول التي يستعبدها سحر القول، وتسحرها خديعةُ السراب، ويقودها نفاقُه الكلم المعسول، وأحيانًا تزعم أنه قد دُسِّي عليها غير ما تدين به، إذا شامت بَعْضَ مَنْ ليسوا علىٰ بصيرة بمعتقد الصوفية، وأحيانًا تزعم أن لما تقول معاني لا يفقهها إلا ذوو البصيرة التي تصلها الأشعة الربانية بأسباب السماء، وذلك إذا شامت بعض

---

(١) (٨-٩-١٠/ ١٣٧٥هـ).

من يؤمنون بأن الجهل خير من المعرفة.

هذا شأن الصوفية قديمًا، وشأنها حديثًا مع الناس جميعًا، نعم هو شأنها في الحديث منذ قامت دعوة الحق يبشر بها أنصار السنة، مستمدة عونها من الله وحده، وحجتها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولقد حاولت الصوفية هذه المحاولة المتهافتة معنا فيما ترد به أحيانًا علينا، أو فيما تجادلنا به في المجالس[1] فعلها أحدهم فيما رَدَّ به علىٰ ما نشره لنا الأستاذ التابعي في جريدة الأخبار، وفعلها أخيرًا أستاذ كبير علىٰ حظ كبير من الثقافة الأدبية، وذلك في محاضرة ألقيناها بنادي رمسيس ببور سعيد، وخلاصة ما قاله الأستاذ الكبير دفاعًا عن الصوفية حين تلونا علىٰ المستمعين من كتب الصوفية نفسها نصوصًا تدمغها بالزندقة الملحدة!! خلاصة دفاعه قوله:

أن للصوفية أحوالًا من السكر بالجمال الإلهي، فيهتفون فيها أحيانًا بأقوال قالوها في حال من السكر.

ويقول الحق ردًّا علىٰ هذا الزعم: أيجوز في شرعة العقل - فضلًا عن الدين - أن نأخذ ديننا عن السكارىٰ؟!

أيجوز أن نجعل قدوتنا في الدنيا قومًا يسكرون، فيكفرون؟!

---

(١) ضمني وشيخ التيجانية مجلس في منزل رجل كبير كريم، فكان أن أقسم الرجل - حين فجأته أمام دراويشه بنصوص ابن عربي - أنه لم يقرأ كتاب الفصوص وسألناه رأيه في هذه النصوص، فحكم بكفر قائلها، فطالبته بأن يسجل لي بخطه هذا الحكم بعد أن أكتب له هذه النصوص فيمهرها بإمضائه وحكمه، ولكنه كعادة الصوفية لاذ بالفرار.

وأي عقل هذا الذي يجعل الصحو اليقظان حِلْسًا مستعبدًا لِلْهَوَسِ السكران؟! ثم هل من يجلس، ويأتي بالمحبرة، ويمسك بالقلم ويقضي في تسجيل هذه الأساطير ساعات وساعات ثم يمضي لينشرها بين الناس في كتاب ينسخه هذا وذاك، هل من يعمل ذلك يعتبر سكرانًا أو مجذوبًا كما يحاول الأستاذ الكبير، ليدفع عن قلب الصوفية الطعنة القاتلة؟!

هذا بعض ما يقوله الحق ردًّا علىٰ محاولة الدفاع عن الصوفية تلك التي تزعم أنهم سكارىٰ!!

والمحاولة الثانية التي مَهَّد لها الأستاذُ الكبيرُ بأشتاتٍ من القول تزعم أن الصوفية قد دُسَّ عليها الكثيرُ كما دُسَّ علىٰ النبي ﷺ، وهذا زعمٌ تلوذ به الصوفية حين تُرْهِبُها من الحق صولتُه، وحين ترىٰ عوارها، وقد انهتك للناس، فبدت في صورة أمها الأصلية المجوسية.

وإلا فليقل لنا دعاة هذا الزعم: ما المدسوس؟ وأين هو؟ وهل فَصَل أحدهم بين الزائف والأصيل من الصوفية أو المدسوس من غير المدسوس؟!

لقد وفق الله سبحانه رجال هذه الأمة من الأبرار، ففصلوا لنا بين الخبيث والطيب فيما نسب إلىٰ رسول الله، بينوا الكاذب من الصادق لأنهم مؤمنون، فأين ما فعله السادة الأخيار الصوفية؟!! وليعذرونا إذا وصفناهم بصفات المؤمنين.

وأقول لهم مرة أخرىٰ: هل الفتوحات المكية، وفصوص الحكم.

وعنقاء مغرب وذخائر الإغلاق، وكلها لابن عربي هل هذه الكتب مدسوسة؟

هل فيها شيء مدسوس؟

ما أظن أنهم في هذه الجرأة، وإلا جردوا ابن عربي من تاجه الصوفي، فهو ما

سمي عند الصوفية بالشيخ الأكبر، والكبريت الأحمر إلا لأنه مؤتفك هذه الكتب التي جعل فيها الزندقة الصماء دينًا للصوفية وهل الإنسان الكامل للجيلي، والديوان لابن الفارض، وهياكل النور وفلسفة الإشراق للسهروردي، هل هذه الكتب مدسوسة؟

قولوا لنا أيها السادة: أين هو المدسوس؟ وما هو؟ لنزداد في نقدكم إنصافًا ولنعلن علىٰ الملإ في غير مخادعة أننا كنا مخطئين!!

قولوها بصدق غير متجانف لإثم، قولوها بألسنتكم وأقلامكم لنسجلها لكم شجاعة ومغفرة.

ومما قاله الأستاذ الكبير - دفاعًا عن الصوفية - أن لكلامهم معاني بعيدة الغور لا يفقهها غير السادة من الصوفية ممن تصلهم بالله نوافح الإلهام!!

يا سبحان الله!! أيصبح إذن فهم أعمق أسرار الدين وتكاليفه وقفًا علىٰ فئة صغيرة، وتبقىٰ الأمة بدينها علىٰ جهالة؟!

أليس هذا معناه أن تصبح الفئة الكثيرة علىٰ عبودية خانعة لهؤلاء الذين يفقهون تلك المعاني، لعلهم يومًا يفقهون عنهم ما يعبدون به الله، أو ما يصفون به الله؟

أيرضىٰ مسلم لنفسه أن يظل رَهْنَ هذا الإسار الظلوم، وأن يظل معطل العقل والفكر، بل أن يظل بهيمة عجماء يقودها سيدها الظلوم إلىٰ الهلكة؟!

ترىٰ أكان رسول الله ﷺ يفقه هذه المعاني أم لا يفقهها؟ إن كانت الأولىٰ، فكان الواجب عليه تبيانها، وإلا خالف عن أمر ربِّه وهُوَ لَمْ يُبَينها فعلًا بزعمكم، فمعنىٰ هذا اتهامكم له ﷺ بخيانة رسالة ربه!!

وإن كانت الأخرىٰ، فمعنىٰ هذا أنكم تتهمون بالعي والقصور عن إدراك

معنىٰ ما أنزل الله عليه من ربه إذا كذبنا أنفسنا وصدقناكم فيما تزعمون من أن لأقوال شيوخكم معاني لا يفقهها سواهم.

أما إذا صدقنا الحق وكذبنا كذب الصوفية فإنا نقول: إن الصوفية في قولها ودينها وكتبها بينة جلية، حتىٰ تستطيع الحكم علىٰ دينها بأنه مخالف كل المخالفة للإسلام بمجرد تصوره دون حاجة إلىٰ برهان عقلي، أو دليل منطقي مطلقًا!! واقرءوا معي أيها السادة هذه النصوص الصوفية[1]، وبينوا لنا معناها إن كنتم حقًّا صادقين في قولكم أن لها معاني علية يفهمها الصوفية وحدهم، وما أظن أن الأستاذ الكبير يرضىٰ لنفسه أن نفهم فيه أنه لا يفهم كالسادة الكبار من الصوفية، وإلا جعله ذلك مظنة أنه يعبد الله بشيء يجهل معناه.

يقول عبد الكريم الجيلي متحدثًا عن الذات الإلهية - وهو من أكبر زعماء الصوفية -:

ذات لهـــا في نفـــسها وجهـــان ... للـــسفل وجـــه، والعـــلا للثـــاني
ولكـــل وجـــهٍ في العبـــارة والْأَدَا ... ذات وأوصـــاف، وفعـــلُ بيـــان
إن قلـت واحـدة صـدقت وإن تقـل ... اثنـــان حقًّـــا إنـــه إثنـــان
أو قلـت: لا. بـل إنـه لَمُثلَّـثٌ ... فـصدقْتَ. ذاك حقيقـة الإنـسان
انظـــر إلىٰ أحديـــة هـــي ذاتـــه ... قـل: واحـد. أحـد فريـد الـشان
ولئن تُـرىٰ الـذاتان، قلـت: لكونـه ... عبـــدًا ورَبًّـــا. إنـــه إثنـــان
وإذا تـــصفحت الحقيقـــة والتـــي ... جَمَعَتْـــه مِمَّـــا حُكْمُـــه ضِـــدَّان

---

(١) لم ترد هذه النصوص في كتابي: «هذه هي الصوفية».

تحتـــار فيـــه، فـــلا تقـــول لـــسفله ... عـــــال ولا لعلـــــوِّه هـــــو داني

بـــل سَـــمِّ ذلـــك: ثالثًـــا، لحقيقـــة ... لحقـــت حقـــائق ذاتهـــا وَصْـــفَانِ

فهـــي المـــسمَّىٰ أحمـــد مـــن كـــون ذا ... ومحمـــــد لحقيقـــــة الأكـــــوان[1]

وهـــو المعـــرَّف بـــالعزيز وبالهـــدىٰ ... مـــــن كونـــــه رَبًّـــا فِـــدَاه جَنـــاني

يقول: الذات الإلهية ثلاثة أقانيم: إله واحد، الأول: الذات، الثاني: الربوبية، الثالث: العبودية، فالذات الإلهية: كانت أولًا في مرتبة الأحدية، أي الوجود المطلق ثم تعينت في ذاته، فكانت رَبًّا، ثم تكثرَت الذات في مظاهر عديدة، فسميت باعتبار تكثراتها، أو مظاهرها: عبدًا.

فالذات الإلهية تسمىٰ رَبًّا، باعتبار باطنها، وعبدًا باعتبار ظاهرها؟

فما ذلك الظاهر؟ إنه مظاهر الوجود السفلية، والعلوية!!

فليس هنالك خالق ولا مخلوق، وإنما هنالك ذات واحدة، هي الخالق وهي الخلق في آن واحد!!

وقد ظهرت هذه الذات بربوبيتها وعبوديتها في أتم مظهر لها، وهو محمد!!

وفي ذلك يقول ابن عربي:

الـــرب حـــق، والعبـــد حَـــقٌّ ... ياليـــت شِـــعْرِي: مَـــنِ المُكَلَّـــف؟!

إن قلـــت: عبـــدٌ، فـــذاكَ نَفْـــيٌ ... أو قلـــــت: رَبٌّ أَنَّى يُكَلَّـــــفُ؟!

فليفسر لنا الصوفية هذا الشعر الوثني، ليبينوا لنا تأويله وتفسيره، لعلنا نعود علىٰ أنفسنا باللائمة!!

---

(١) (صـ١/ جـ ١) الإنسان الكامل ط ١٢٩٣ هـ.

ثم يفسر الجيلي لنا صفات الذات الإلهية، أو جوهره المفرد: (وكونها تجمع بين النقيضين المتقابلين تقابلًا حقيقيًّا في صفتها وأسمائها، ولهذا الجوهر غرضان.

الأول: الْأَزَلْ، الثاني: الأَبَد، وله وصفان:

الوصف الأول: الحق، والوصف الثاني: الخلق، وله نعتان: النعت الأول: الْقِدَم والنعت الثاني: الحدوث، وله اسمان: الاسم الأول: الرب.. والاسم الثاني: العبد، وله وجهان الوجه الأول: الظاهر. وهو الدنيا.

والوجه الثاني: الباطن، وهو الأخرىٰ، وله حكمان: الحكم الأول: الوجوب والثاني: الإمكان)[1].

الله: هو كل شيء، الله: هو هذه الأشياء، فهو واجب ممكن، قديم حادث، حَقٌّ، خَلْقٌ، رَبٌّ، عبد، هو الدنيا، وهو الآخرة.

تعالىٰ الله، وإنما هو الوهم الصوفي الذي عبدوه.

فانظروا إلىٰ إله الصوفية، هذا المسكين التعس، المنكود، يَعْبُدُ، وَيُعْبَد، يحيا ويموت، يوجد ويُعْدَم!!!.

❁ ❁ ❁

---

(١) ص(١٧) المصدر السابق.